

فكرة العبادة في الاسلام

الاستاذ الدكتور أحمد حسن

مجمع البحوث الاسلامية، اسلام آباد

ان القرآن الكريم يؤكد ”عملا صالحا، في الحياة الانسانية تمام التوكيد – و يقول ان الهدف الاساسى لخلق الموت والحياة هو الاحسان في العمل : الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا (الملك : ٢٠) – كما يقول ان المقصود بخلق الانسان والجن هو العبادة : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (الذاريات : ٥٦) والعبادة على الحقيقة هي الاحسان في العمل، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك – وبذلك نعرف ان الاحسان، والعمل الصالح، والعبادة، هي شئ واحد في معناها الواسع – والمطلوب هو الاحسان في العمل فى جميع الاعمال الانسانية .

و ما يلاحظ، ان القرآن الكريم يذكر مع الايمان ”عملا صالحا، غير مرة، و بذلك يشير الى ان الحياة الانسانية هي جهد متصل، و عمل مستمر، وسعى دائم ، ليس فيها ركود وجمود ووقوف، والحياة هي اقدام ، و اقبال، وانماء و لكن هذا العمل هو مقيد بالصالح والخير والتقوى – لان الحياة الانسانية تتجلى بالعمل الصالح، لاسيما الاحسان، وان العمل الصالح له معنى واسع، يشمل جميع اعمال الخير ظاهرا و باطنا – و يتقسم عموما الى العبادات والاخلاق والمعاملات : ان الاعمال الصالحة التى تتعلق بالله تعالى خاصة يقال لها عبادات، والاعمال

التي تتعلق بالعباد اما هي واجبات خلقية وهي الاخلاق، واما واجبات قانونية او شرعية وهي المعاملات - وهذا تقسيم الاعمال الاصطلاحى .

ان كلمة العبادة فى الاسلام لها مفهوم واسع، وهى تشمل كل امر الذى غايته الحصول على مرضاة الله وابتغاء وجهه . ولذلك الاخلاق والمعاملات داخله تحت العبادة . وقسم الامام الغزالى رحمه الله فى كتابه الاربعين - العبادة الى عشرة انواع، وهى : الصلوة، والزكاة والصوم، والحج، و تلاوة القرآن، وذكر الله عزو جل كل حين، والسعى لكسب الحلال، واداء حقوق الجيران والرفاق، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، و اتباع السنة النبوية - و يفهم معنى العبادة بالعموم بعض الاعمال الخاصة التى يقوم بها الانسان لاطهار عجزه وذله وخضوعه لله تعالى، و اظهار غاية التعظيم والكبرياء لربه . ومن المعلوم انه معنى ضيق جدا للعبادة و يمكن أن نقول ان الاركان الاربعة التى يقال لها العبادات هى نوع من التمرين على طاعة الله تعالى فى جميع الاعمال . ولا نريد بذلك انها ليست مقصودة بذاتها بل هى مقصودة بذاتها بلاشك، ولكن مع جميع الاعمال التى داخله تحت كل ركن ، و سهما تكن تلك الاعمال ناقصة تكن العبادات ناقصة و بلا روح و فائدة - والاركان الاربعة هى عنوان جامع لجميع الاعمال الانسانية و لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : بنى الاسلام على خمس الخ . . . و عقيدة التوحيد هى حجر اساسى لجميع الاعمال الصالحة، و سهما ضعفت هذه العقيدة، ضعفت الاعمال كلها .

و نذكر فيما يلى بعض آراء العلماء من اللغويين والمفسرين و الفقهاء

و الصوفية والفلاسفة حول فكرة العبادة فى الاسلام :

و اشتقاق كلمة العبادة من العبد الذى هو مأخوذ من "الطريق المعبد"،

وهو الذلل السوطوي (١) واصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل، والعبادة الطاعة، والتعبد: التسك (٢) و معنى العبادة فى اللغة: الطاعة مع الخضوع (٣). و العبادة ابلغ من العبودية لانها غاية التذلل ولا يستحقها الا من له غاية الافضال، وهو الله تعالى. والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير كما فى السجود، و عبادة. بالاختيار، وهى لذوى النطق: وهى الماسور بها فى نحو قوله تعالى: اعبدوا ربكم (البقرة: ٢١) (٤)

والعبادة عند الاسام الطبرى هى التوحيد والخوف والرجاء — و يفسر الآية: اياك نعبد، قائلا: اياك نوحى و نخاف و نرجو ياربنا لاغيرك، بمعنى نخشع، و نذل، و نستكين، دون البيان عنه بانه بمعنى نرجو و نخاف — وان الرجاء والخوف لا يكونان الا مع ذلة، لان العبودية عند جميع العرب اصلها الذلة. (٥) و ضد العبادة الاستكبار، لان العبادة هى اظهار الخضوع والذل، والاستكبار هو اظهار الكبر والانانية.

والعبادة عند جميع المفسرين عبارة عن تعظيم الله تعالى و اظهار الخضوع له (٦) وهى الاتيان بالفعل الماسور به على سبيل التعظيم للامر، كما يقول الاسام الرازى (٧). وهى نهاية التعظيم، و نهاية التعظيم لاتليق الا بمن يصدر عنه نهاية الانعام. (٨) و فى تفسير الآيه وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (الذاريات: ٥٦) يقول الاسام الرازى ان العبادة التى خلق الجن والانس لها هى التعظيم لامر الله، و الشفقة لخلق الله، فان هذين النوعين لم يخل شرع منهما. (٩) والعبادة عند الفقهاء هى امر يتقرب به الانسان الى الله تعالى، وهى امر لا يعقل معناه — و لذلك لايجرى القياس فى الاسور التعبدية — و فكرة القياس عند الفقهاء ضيقة، وهى لا تطلق على جميع الاعمال الصالحة او على الاسور الدينية

العامّة او على الطاعة في معناها الواسع — وهي تطلق على الاركان الاربعة ويوجد معناها في العشر و صدقة الفطر .

و العبادة عند الشافعي رحمه الله اسم لما يكون المرء بمباشرةه سطيحا —
ولذلك يعتقد ان صوم العيد لم يبق بعد النهي صوما مشروعا، حتى لا يصبح التزامه
بالنذر لان الصوم المشروع عبادة. (١٠)

وقال ابن نجيم : مدار الدين متعلق بالاعتقادات و العبادات و المعاملات
والمزاج و الآداب. و العبادات خمس : الصلوة و الزكوة، و الصوم، و الحج،
و الجهاد (١١)

و قسم الفقهاء الاحكام الشرعية الى تعبدى و عادى . و التعبدى ما لم
يعقل معناه على التفصيل من الماسور به و المنهى عنه . و العادى ما عقل معناه
و عرفت مصلحته او مفسدته — و يقول الامام الشاطبي رحمه الله : و لكن قد
ثبت في الاصول الشرعية انه لا بد في كل عادى من شائبة التعبد — فالطهارات،
و الصلوات، و الصيام، و الحج كلها تعبدى، و البيع و الشكح و الشراء و الطلاق و الاجارات
و الجنائيات كلها عادى لان احكامها معقولة المعنى، و لا بد فيه من التعبد، اذ هي
مقيدة باسرها شرعية — و لاخيرة للمكلف فيها، كانت اقتضاء او تخييرا، فان التخيير في
التعبدات الزام، كما ان الاقتضاء الزام — و اذا كان كذلك فقد ظهر اشتراك
القسمين في معنى التعبد. (١٢)

و يرى الامام السرخسى رح ان العبادة هي الطاعة لله تعالى، و اظهار
العبودية و الانقياد . و يعتقد انه لا مدخل للرأى في معرفة ما هو طاعة الله تعالى —
و لهذا لا يجوز عنده اثبات اصل العبادة بالرأى — و التعبد ليس هو مبنى على قضية

الرأى بل طريقه طريق الابتلاء (١٣). و يرى ان ليس فى العبادات صنعا للعبد ولا اختيار. فان الموجب هو الله، تعبد العباد بما اوجب عليهم، فكما لا صنع لهم فى صفة العبودية الثابتة عليهم لا صنع لهم فى اصل الوجوب ايضا. (١٤)

والعبادات كلها عند الامام السرخسى رد داخلة فى حقوق الله خالصة. و يقسمها الى انواع ثمانية: عبادات محضة، وعقوبات محضة، وعقوبة قاصرة، و دائرة بين العبادة والعقوبة، و عبادة فيها معنى المؤنة، و مؤنة فيها معنى العقوبة، و ما يكون قائما بنفسه. و اما العبادات المحضة فأسها الايمان بالله، و الاصل فيه التصديق بالقلب فانه لا يسقط بعذر ما من اكراه او غيره. و الاقرار باللسان ركن فيه مع التصديق بالقلب. (١٥)

و يظهر ان معنى العبادة عند الامام السرخسى اوسع مما يرى ابن نجيم، لانه لا يدخل الايمان فى العبادات، ولكن السرخسى رد يرى ان الايمان هو رأس العبادات.

و يوجد معنى القربة فى جميع العبادات عند الفقهاء. و يذكر الامام السرخسى العبادات بكل تفصيل و يوضح كيف يوجد فيها معنى القربة الى الله تعالى، لان الامر الذى لا يوجد فيه معنى القربة ليس هو العبادة. و نذكر فيما يلى بعض الامثلة يوجد فيها معنى القربة، و بذلك يقال لها العبادة.

يقول الامام السرخسى رد: و العبادات مشروعة لاطهار شكر النعمة بها فى الدنيا و نيل الثواب فى الآخرة فكما ان شكر نعمة البدن بعبادة تؤدى بجميع البدن وهى الصلوة فشكر نعمة المال بعبادة مؤداة بجنس تلك النعمة — واما صار الاداء قربة بواسطة المعروف اليه وهو المحتاج.

و الصوم الذى من جنس المشروع شكرا لنعمة البدن، وهو الكف عن اقتضاء الشهوتين : شهوة البدن، و شهوة الفرج، وانما صارت قرينة بواسطة النفس المحتاجة الى نيل اللذات و الشهوات، ففى قهرها بالكف عن اقتضاء شهواتها لابتغاء مرضاة الله معنى القرينة .

ثم الحج الذى هو زيارة البيت المعظم يشتمل على اركان تختص باوقات وامكنة . و فيها معنى القرينة باعتبار معنى التعظيم لتلك الاوقات و الامكنة .
والجهاد قرينة باعتبار اعلاء كلمة الله و اعزاز الدين ولما فيه من توهين المشركين و دفع شرهم عن المسلمين .

والاعتكاف قرينة زائدة لما فيه من تعظيم المكان المعظم بالمقام فيه وهو المسجد .

واما صدقة الفطر فهى عبادة، فيها معنى المؤنة و لهذا لا تتأدى بدون نية العبادة بحال .

واما العشر فهو مؤنة فيه معنى العبادة، والخراج فيه معنى العقوبة من حيث ان وجوب كل واحد منهما باعتبار حفظ الاراضى، الا ان فى الخراج معنى الذل ويوجد معنى العبادة فى العشر من حيث انه مصروف الى الفقير كالزكوة، وبواسطة هذا المعروف يثبت فيه القرينة، وان كان وجوبه باعتبار مؤنة الارض . و لهذا قال ابو حنيفة : اذا تحولت الارض العشرية الى سلك الذمى تصير خراجية، لان فيه معنى العبادة، والكافر ليس من اهل العبادة اصلا . والخراج يبقى وظيفة الارض بعد انتقال الملك فيها الى المسلم، لان المسلم اهل من ان توجب عليه المؤنة التى فيها معنى العقوبة، فانه بعد الاسلام اهل للزام العقوبة عند تقرر سببها منه .

و العبادة عند الصوفية على ثلاث مراتب : منهم من يعبد الله لرجاء الثواب، وخوف العقاب، وهذا هو العبادة المشهورة وبه يعبد عامة المسلمين .
ومنهم من يعبد لينال بعبادة شرف الانتساب، بان يسميه الله تعالى باسم العبد، وهذه يسميها بعضهم بالعبودية . ومنهم من يعبد الله من حيث ان يعمل بما يرضى الله تعالى وهى لعوام المؤمنين، كما ان العبودية لخواصهم .

وقال بعض الصوفية : العبودية اربعة : الوفاء بالمشهود، والرضاء بالموعود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود، وقال بعضهم : العبودية ثلاثة : منع النفس عن هواها، وزجرها عن سناها، والطاعة فى امر مولاه . و نهاية العبودية الحرية .

العبودة هى اعلى من العبودية، وهى اعلى من العبادة عند الصوفية، فالعبادة محلها البدن، وهى اقامة الامر، والعبودية محلها الروح وهى الرضاء بالحكم، والعبودة محلها السر، والخلفاء الراشدون كلهم كانوا فى مرتبة العبودة . و معنى العبودة التعبد اجلالا و هيبه، و حياء منه و محبة له : و كان الصديق يعبد الله تعالى اجلالا و تعظيما، و كان عمر يعبده خوفا و هيبه و كان عثمان يعبده حياء، و كان على يعبده محبة . (١٧)

و يقول ابن القيم : ان العبادة تجمع بين اصلين، غاية الحب بغاية الذل والخضوع فمن احبته ولم تكن خاضعاه لم تكن عابدا له، حتى تكون محبا خاضعا . (١٨)

ويقسم اهل العبادة الى اربعة اصناف :

الاول : عندهم انفع العبادات وافضلها اشقها على النفوس واصعبها .

الثاني : قالوا : افضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا و التقلل منها غاية الاسكان .

الثالث : رأوا ان انفع العبادات وافضلها ما كان فيه نفع متعدد . فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بصالح الناس وقضاء حوائجهم افضل .

الرابع : قالوا : ان افضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادة وقت الجهاد الجهاد، وان آل الى ترك الاوراد، من صلوة الليل و صيام النهار، والافضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب و كذلك في اداء حق الزوجة والاهل . وهؤلاء هم اهل التعب المطلق، والاصناف قبلهم اهل التعب المقيد . (١٩)

و صاحب التعب المطلق ليس له غرض مطلق في تعب لعينه يؤثر على غيره، بل غرضه تتبعه مرضاة الله تعالى اين كانت . فمدار تعبده عليها . فان رأيت العلماء، رأيت معهم، و كذا ان رأيت العباد والمجاهدين والذاكرين والمتصدين، رأيت معهم — ولم تسلكه الرسوم، ولم تقبده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه . سلبه سائبها، وما كفه ما تيسر، و اشتغاله ما امر به في كل وقت بوقته، هو دائر مع الامر حيث دار، يدين بدين الامر اني توجهت ركائبه، فهو لله، وبالله، ومع الله . قد صحب الله بلا خلق، و صحب الناس بلا نفس، ما اعزبه بين الناس، وما اشد وحشته منهم، وما اعظم انسه بالله و فرحه به وطمانيئته وسكونه اليه . (٢٠)

والعبادة هي مظهر العبودية، وجعل الله تعالى العبودية وصف اكمل خلقه . وهي وصف ذكر الله تعالى في القرآن الكريم كثيرا من الانبياء في مقام المدح والثناء، و ليس هناك وصف لهم اعلى وافضل منه عنده فيقول مثلا لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله (النساء : ١٧٢) وقال تعالى عن المسيح عليه السلام : ان هو الا عبد انعمنا عليه (زخرف : ٥٩) فجعل غاية العبودية لا الالهية كما يقول اعداؤه . ووصف اكرم خلقه عليه واعلاهم عنده بمنزلة بالعبودية في اشرف مقاماته، فقال تعالى : وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا (البقرة : ٢٥) . وقال تعالى : الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب (الكهف : ١) فذكره بالعبودية في مقام انزال الكتاب عليه والتحدى بان ياتوا بمثله . وقال تعالى : سبحان الذي اسرى بعبده ليلا (الاسراء : ١) فذكره في العبودية في مقام الاسراء . وجعل الله تعالى البشارة المطلقة لعباده : فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه (الزمر : ١٨) (٢١)

و قال ارسطاطاليس ان بعضهم رأى ان الواجب لله عزوجل على الناس ليس سبيله واحدا ولا هو شئ بعينه يلتزمه الجميع التزاما واحدا و على مثال واحد . و لكنه يختلف بحسب اختلاف طبقات الناس و مراتبهم من العلم . (٢٢) و قال بعض الفلاسفة ان عبادة الله تعالى في ثلاثة انواع : احد هما فيما يجب على الابدان كالصلوة والصيام وسعى المراقف الشريفة لسنجاة الله والثاني فيما يجب له على النفوس كالاقتادات الصحيحة مثل العلم بتوحيد الله وما يستحقه من الثناء والتمجيد، و كالفكر فيما افاضه الله على العالم من وجوده و حكمته، ثم الاتساع في هذه المعارف، والثالث فيما يجب له عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات و المزارعات والسناكح و في تادية الامانات و نصيحة

البعض للبعض بضروب المعاونات، و عند جهاد الاعداء والذب عن الحريم و حماية الحوزة . فهذه العبادات هي الطريق المؤدية لله تعالى، وهي التي تجب على عباده . (٢٣)

و قصارى القول ان العبادة في الاسلام ليست هي الاركان الاربعة فقط، كما يعتقد عامة الناس، بل هي فكره جامعة شاملة لجميع الاعمال الصالحة كما ذكرنا في البداية - ويؤيد القرآن الكريم هذه الفكرة حيث يقول : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (الذاريات : ٥٦) يعنى غاية حياة الانسان هي الطاعة لله تعالى فحيث كان الطاعة له والعمل الصالح لابتغاء مرضاته، فثم عبادته، سواء كان العبادات الرسمية التقليدية، والسناكح والمعاملات، وما الى ذلك من الاسور . و لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله عزوجل الا اجرت بها حتى ما تجعل في فم امرأتك . (٢٤) و قال في حديث آخر : من انفق نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة . (٢٥) والحق ان المؤمن يوجر في كل معروف حتى في كل شئ يعمله وهو يحتسب . و فرضت العبادات الرسمية لكي يتعود الانسان لطاعة الله تعالى حتى تكون حياته كلها عبادة، و لكي يخرج نفسه من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، و يكون محتاجا الى ذاته فقط في جميع الاعمال، و خلاصة العبادة هي الدعاء الى الله تعالى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : الدعاء هي العبادة او سبخ العبادة . (٢٦)

تعلیقات

(١) ابن دريد : الاشتقاق، ص ١١٠

(٢) الجوهرى : الصحاح، مادة عبد

- (٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة عبد
 (٤) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مادة عبد
 (٥) الطبري جامع البيان، ج ١ — ص ١٦٠ — ١٦١
 (٦) فخرالدين الرازي: مفاتيح الغيب ج ٢، ص ٨٤
 (٧) نفس المصدر، ج ١، ص ٨
 (٨) نفس المصدر، ج ١٣، ص ١٥٩
 (٩) نفس المصدر، ج ٢٨، ص ٢٣٣
 (١٠) السرخسي: اصول السرخسي، ج ١، ص ٨٣
 (١١) ابن نجيم: البحر الرائق، ج ١، ص ٧
 (١٢) الشاطبي: الاعتصام، ج ٢، ص ٢٣٧-٢٣٨
 (١٣) السرخسي: اصول السرخسي، ج ٢، ص ١٢٢
 (١٤) نفس المصدر: ج ١ ص ١٠٠
 (١٥) نفس المصدر: ج ٢، ص ٢٩٠
 (١٦) نفس المصدر: ج ٢، ص ٢٩٠-٢٩٣
 (١٧) محمد اعلى التهانوي: كتاب كشف اصطلاحات الفنون، مقال عبادة
 (١٨) ابن القيم: التفسير القيم، ص ٦٥
 (١٩) نفس المصدر: ص ٧٦-٨٠
 (٢٠) نفس المصدر: ص ٨٠-٨١
 (٢١) نفس المصدر: ص ٩٦-٩٧
 (٢٢) ابن مسكويه، تهذيب الاخلاق، ص ١٢٢
 (٢٣) نفس المصدر: ص ١٢٢-١٢٣
 (٢٤) البخاري: الأدب المفرد ص ١١٢
 (٢٦) سنن ابي داود — و جامع الترمذي

